الفصل السابع
موت في الصحراء

استمر فارس وعصبته في السير بمعنويات عالية. كانت السماء زرقاء والأرض مكسوة بالخضرة، والهواء معطراً ومنعشاً. وامتدت البرية إلى الأفق بلا انقطاع. أحياناً يفقد المرء الإحساس بالتقدم. فهل كنا واقفين بلا حراك؟ نسير في دائرة؟ لأن المنظر لا يتغير. ومع ذلك فالمرء لا يكل منه ولا يشبع من هذه الحركة البهيجة.

نرتفع ونهبط سيراً في السهوب والصحراء دون أن ندري. والتلال لاتكاد تتميز عن الوديان، سوى أن الوادي مازال يلمع قليلاً بعد الزّخّة الأخيرة التي تكسبه لمسة أنضر من الخضرة.

سافرنا لمدة ثلاثة أيام لم نرَ فيها أية خيام أو قطعان. لاشيء سوى البرية الخالية تحت السماء الصافية وقد بدت البرية أحياناً زاهية كالحة بالحصى والأحجار والحمم البركانية.

وفي اليوم الرابع، ومن طرف جرف شديد الانحدار كما لو كان جرفاً بحرياً، رأينا فجأة أمام أعيننا وادي سرحان، في مكان عريض منه: خليط من

الضفاف الحورية، ترتفع فوق صخور كلسية، وسهول حجرية ومستنقعات مالحة، وتلال رملية، وشجيرات رمادية، ونجود وأحواض طينية عميقة الأخاديد، نتيجة عوامل الحت والتعرية.

وفي مساء اليوم التالي وصلنا إلى **ميكوع**، وهو مورد قديم للرولة. كانت بضع مئات منهم ماتزال تحت الخيام هناك في ظل الهضاب الرمادية، فبتنا ليلتنا معهم. وطوال الليل استمروا في سقي قطعانهم من الآبار العميقة حيث سمعنا الصرير المستمر للبكرات الخشبية الصغيرة المعلقة على قوائم خشبية بدائية، وقد تدلى منها دلو كبير لغرف الماء من عمق يقارب ثمانين قدماً.

وبعد مسيرة ساعات قليلة بعد **ميكوع** دخلنا **نجد البسيطاء** الواسعة وهي على الأرجح البقايا المنبسطة لأقدم سلسلة جبال في الجزيرة العربية. ولاتزال بضعة قمم صغيرة (مغطاة بطبقة من الرمال) تبرز عن السطح الذي يمتد لأكثر من ستين ميلاً، وهي أرض مستوية تماماً بدون ماء وبدون مرعى. ويبدو أن هذه القمم قد غطته بالحجارة السوداء. وفجأة تغير العالم البهيج ولم يبق حولنا سوى القفار. وعلى الرغم من أن **البسيطاء** بدت مقفرة ورهيبة لأول وهلة إلا أنّها بعد بضعة أيام من الأمان فيها علمتني كيف أحب هذه القفار بكل كآبتها البائسة، إذ خيّم عليها الانعزال والسكينة كأنها كوكب مهجور. وبين الفينة والأخرى كانت تظهر أمامنا بعض الوعول أو النعام إلا أنها تهرب منا بمجرد اقترابنا منها. وقلما مررنا بشجيرة ترتفع حتى الركبة أو ورقة خضراء أو وردة. كما أننا لم نسمع تغريد أية طيور. حتى الأفاعي والسحالي تجنبت هذه القفار. وأحياناً في الصيف (حسب كمية المطر) ينمو في هذا النجد محصول غني غريب من **السمح في البسيطاء**، وهو نبات قصير صغير الأوراق ينضج على أغصانه نوع من التوت الذي يحتوي على بذور بنية مائلة إلى الحمرة. ويحمّص البدو هذه البذور ويطحنونها للحصول على دقيق مرّ داكن. وإذا عُجن هذا الدقيق مع الزبدة والتمر أو غُلي بالماء يعطي نوعاً من الطعام يعرف بالثريد.

وبعد تجديد مخزوننا من الماء من بئر **الهاوسا** تقدمنا نحو **بير باير** ثم إلى وادي سرحان الشمالي الشرقي وهو يمثل مراعي بني صخر الفعلية.

واستطلعنا ـ واحداً بعد الآخر ـ المخيمات المتفرقة لعدونا المفترض، مرسلين بعد كل استطلاع رسولين يحملان الرسائل التي تقول بأن تجمعّنا الرئيسي سيكون قرب **أم وعل**. وفي إحدى الليالي زحف فارس ـ قائد حملتنا كما سميناه ـ حتى اقترب من خيام بني صخر إلى حد جعله يسمع حديثهم. وبدت النتيجة الإجمالية لجهودنا هي الاستنتاج المريح القائل بأن بني صخر لابد انهم تخلّوا عن خططهم لغزو الرولة.

ولكننا توخينا الحذر. وفي صباح أحد الأيام بينما كنا ننصب كميناً على الأرض المالحة تحت غطاء بعض الشجيرات ظهرت صفوف طويلة من الجمال في السهل وتفرقت لترعى. وخلف هذه الجمال أتت الجمال المحمّلة بعائلات بني صخر المهاجرة. وتمنينا أن يخيموا قبل حلول الظهر لنتأكد إذا كان فرسانهم كانوا معهم أم لا. ولكن بعد حلول الظهر بوقت طويل استطعنا أن نراهم من مسافات بعيدة يوقفون جمالهم. ورميت الخيام والأعمدة على الأرض، وبدأت النساء والأطفال والعبيد ينصبون خيامهم الجديدة بجد وحزم، ووصل بعد ذلك فرسانهم على خيولهم، ورجال يركبون الجمال وهم الحراس الذي يحمون جناحي المجموعة الراحلة.

ونهضنا بدون ضجيج مغادرين مخبأنا، وجرينا بخطوات واسعة خلف ناقة فارس الحبلى التي كانت ضجرة طوال النهار. وفجأة رفضت التقدم وناخت. كان هذا نذير خطر علينا لأن المستطلعين دائماً يتجولون بجوار الخيام البدوية. وبالإضافة إلى ذلك فليس هناك مكان أفضل للعدو ليفاجئنا بكمين، إذ الصخور الكلسية بيضاء تحاصرنا من أحد الجوانب، بينما في الجوانب الأخرى ركام حجارة سوداء لامعة، وركام ترابي مغطى بالشجيرات.

وساعد عدد منا فارس على نزع عُدة ناقته، لأنه اتضح أنها على وشك الولادة، ولذلك اضطجعت على جانبها. ونظر فارس إلينا خجلاً وكأنه يتوقع

اللوم. ولكننا جميعاً ضحكنا على هذه البليّة. ولم تصدر أية كلمة نابية أو لعنة أو لوم للناقة البريئة بل ساد ذلك الهدوء والاتزان البدوي الذي أُعجَبُ به.

وبقي فارس يلاطف ذلوله المحبب برقة، وعندما حلت اللحظة المناسبة أمسكت برأس الناقة، وقام فارس وأحد عبيده بتوليدها. كان الوليد بطول الرجل. في البداية فكرت أنه وُلِدَ ميتاً، ولكن بعد أن لعقته أمه لبعض الوقت بدت عليه علائم الحياة. وفي تلك الليلة استطاع الجمل الوليد الوقوف على قوائمه، وسمحت له والدته بالرضاعة، ولكن في الصباح أبعد عنها وقتل. وناحت الأم المسكينة وانتحبت بصوت عال على وليدها، ولكنها هدأت عندما عاد إليها فارس. واستمرت في شمّ ذراعه وكتفه واستشمام الهواء، مما أثار فضولي فاقتربت. لقد خاط فارس قطعة من جلد وليدها كُمّ وكتف عباءته وهذا ما هدّأ الأم. وبعد الظهر ـ قبل ركوبنا ثانية ـ سمحت الناقة بحلبها. كانت تنشج من وقت لآخر ولكنها تهدأ فوراً عندما يمد فارس يده أو يضغط بكتفه على خياشيمها.

وأخيراً ـ تقدمنا حوالي الظهر وأمامنا رجال استطلاعنا. ورأينا النسور تحوم خلف أحد الجروف ـ وعند سفح الجرف البعيد وجدنا أرضاً ممهدة بالأقدام وجثة بدوي وجمله. كان الرجل قد جُرّد تماماً، ولم نجد أي قطعة من الملابس أو الشداد أو العّدة لتدلنا على المكان الذي قدم منه أو القبيلة التي ينتمي إليها.

وفي تلك اللحظة عاد أحد رجال استطلاعنا ليقول إن جمال بني صخر ترعى على مسافة قريبة منا ومعها الرعيان والحراس.

وفجأة لمحنا عدداً من الرجال فوق أحد المرتفعات مختبئين خلف الشجيرات، كما رأينا لمعان بنادقهم مصوباً نحونا، فصاحوا باتجاهنا «أنتم هناك. يا راكبي الجمال». ورد فارس: «أصدقاء». ولكن ما إن توقفنا حتى لعلعت الطلقات فوق رؤوسنا. وضحك فارس ثم صاح: «بنو صخر! وهنا يقف الرولي فارس بن نايف. سلام. السلام عليكم».

ولكن الرجال لم يثقوا بنا، إذ لابد أنه بدا لهم من المريب أن يظهر غزوة من الرولة في مثل هذه المنطقة البعيدة، فلم يردوا تحيتنا، وبدلاً من ذلك صدرت صرخات من حولنا «افتلوهم! اقتلوهم». وبدا أن أعداداً جديدة أخذت بالظهور من تحت الأرض، إذ من المؤكد أنهم تركوا خيولهم بعيداً عن المكان وزحفوا إليه تحت الحماية. وفي النهاية ـ عندما بدت صرخاتهم للقتل نذير شؤم، ولعلع رصاصهم عدة مرات، وبينما كنا نحاول إفهامهم في هذا الظرف القاسي ــ خرج رجل من مخبئه وصاح «فارس بن نايف».

ونزل قائدنا من ظهر ذلوله وصاح بسرور: «جراد بن جنيب» إنه أحد شيوخ بني صخر وأحد أصدقاء فارس القدامى.

وفي لحظة من الزمن خرج بنو صخر من مخابئهم والتفوا حولنا، وأمطرونا بوابل أسئلتهم عندما قادونا إلى مخيمهم الواقع على مسيرة بضع ساعات. وفي الطريق حدثهم فارس حول أسر أحد رجال استطلاعهم ورحلتنا السلمية إلى مراعيهم للاستقصاء. واعترض ابن جنيب مراراً وتكراراً بأن بني صخر كانوا في «سلام لا تشوبه شائبة». مع الرولة، وأن الجاسوس الأسير إنما هو قاطع طريق وطريد من القبيلة، أراد نهب الرولة لحسابه الخاص.

وعندما ترجلنا في ديار ابن جنيب ذبح لنا جملاً أمام أعيننا، ووضع أحد العبيد دمه في إناء، ثم امتشق حفنة من الأعشاب وغمسها في الدم، ورسم بها الشعار القبلي على رقاب وجوانب رواحلنا. كان القصد من ذلك ضمان نوايانا السلمية، وضمانة لنا بين بقية بني صخر. كانت فصيلة منهم لاتزال تطارد البدو من منطقة الحمم الشمالية الغربية الذين دخلوا وادي سرحان وهاجموا ـ في اليوم السابق ـ رعاة بني صخر الذين كانوا يرعون جمالهم. وخسر الغزاة قتيلاً واحداً ــ وهو القتيل الذي وجدنا جثته ـ وجرح اثنان من بني صخر..

زرت هذين الجريحين فوجدت أحدهما مصاباً بجرحين خطيرين في صدره وفي بطنه وهو على وشك الموت. بذلت أقصى جهدي لإنقاذه ــ إذ اصطحبت معي حقيبة معداتي الجراحية والمورفين والضمادات ــ ولكن بعد فوات الأوان.

وكل ما استطعت القيام به هو تسهيل ساعاته الأخيرة بتخفيف آلامه. ولم يكن الرجل قد جاوز الأربعين من العمر. حمله أصدقاؤه إلى خيمة ابن جنيب القريبة ومددوه هناك. وبعدئذ قاد أحد العبيد راحلة جميلة إلى المكان. ومن المؤثر أن الحيوان الذكي شعر بقرب موت راكبه فداعبه مراراً، ودار حوله بعينين قلقتين واسعتين ملامساً الرجال الغرباء بشفتيه المشقوقتين وخياشيمه الحريرية الناعمة.

كان الرجل يتحدث مع زعيمه **ابن جنيب** عندما أغمي عليه نتيجة النزيف الحاد. وعندما استفاق همس ببعض الكلمات إلى أحد العبيد. وقبل أن أدرك ما حدث لوى العبد رأس الجمل وذبحه بطعنة سريعة من خنجره في الوريد الوداجي.

في الحال سلخ العبيد الآخرون الحيوان وفرشوا جلده أمام الخيمة ووجهها الوبري على الأرض. وبعد ذلك خلعوا ملابس الرجل الجريح ووضعوه على الجلد. كانت أمنيته الأخيرة أن يدفن في جلد ذلوله العزيز. وقد أسعدته إمكانية تحقيق أمنيته وهو على فراش الموت. ولكني لست الوحيد الذي أسف لموت هذا الحيوان الرائع دون جدوى.

وعندما لفظ الرجل أنفاسه الأخيرة في المساء قام أربعة حراس من أصدقائه ولمسوا ـ الواحد بعد الآخر ـ جبهته برؤوس أصابعهم. ركع ابن جنيب بجانب الميت ووضع يده تحت إبطه الأيسر وبعد فترة قال: «حقاً إنه بارد».

نهض ابن جنيب مسرعاً ولفّ الجلد المبلل فوق الجثة وطلب من عبيده أن يحفروا له قبراً في الرمال. وبدون أية طقوس أو أية انفعالات حملت الجثة ودفنت تحت التراب.

وبعد مفارقة بني صخر اتجهنا ـ في طريق العودة ـ ببطء نحو منطقة **بير هاوسا** التي يكثر فيها الصيد.

وعند الآبار قابلنا رجالاً يسقون قطيعاً من الجمال إنهم من الشرارات أصدقاء الرولة، وقد ساعدونا على سحب الماء من الآبار التي يبلغ عمقها خمسين

قدماً. وفي المساء انسحبنا وإياهم إلى التلال القريبة وخيمنا في واد صخري بعد وضع الحراس فوق القمم السوداء. وتلألأت النجوم علينا ونحن نتناول عشاءنا المؤلف من لحم جمل صغير طري مشوي وخبز **القصم** وحليب النوق الطازج المتبوع بالحلويات المعتادة من التمر الممزوج بالسمن. ولم ننم نحن الرولة قبل منتصف الليل ــ كل رجل تحت رأسه بندقيته الملقّمة ــ لأننا لم نثق تماماً بالشرارات على الرغم من أننا أكلنا وشربنا معاً وعلى الرغم من أنهم يعيشون تحت رعاية نوري الشعلان. ولكن انقضى الليل بسلام. وفي الصباح ودّعنا مضيفنا بعد أن تبادلنا بعض الهدايا البسيطة.

* * *